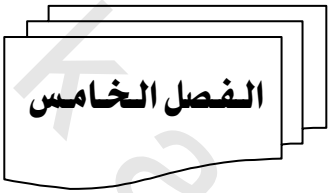

الخاتمة : سايكولوجية الأقلية الدينية

obeikan.com

obeikan.com

لا مجال لقانون الأغلبية في القضايا التي تخص الضمير.

(مهاتما غاندي)

الأطفال والأقلية المبدعة هم السعداء الوحيدون.

(جين كالدويل)

• • • • •

لا بد لمن يحلِّق عاليًا عبر فضاءات الروحانيات والأساطير التي يتيحها "المغمور من أديان الشرق الأوسط" أن يلاحظ تشكل "هالة" من الانطباعات حيال إقليم الشرق الأوسط الذي يفوح برائحة التاريخ، خاصة تاريخ الحياة الروحية لنوعنا الآدمي الممتد وجوده إلى أزمنة غابرة في القدم. إنه إقليم سكنته أكثر الأقوام خيالاً وخصوبة روحية حيث أدَّتْ دراما بحث الإنسان عن أساس للتيقن، تلك الدراما نصف المأساوية ونصف الكوميدية، هي الدراما التي تجسِّد بلفظ الإله تلك العين الرقيبة الدائمة الوجود والكُلِّية العلم والكُلِّية القدرة التي ترى ما لا يراه الإنسان من الملكوت ومن استحالات الوجود وطبيعة البشر. إنها العين التي لا تكلُّ من مراقبة نياتهم وأعمالهم. من الصراع المركزي لهذه الدراما نبع قرن التدين بالخوف الهاجسي من إله السماوات الذي يراقب ملكوته من عليائه على نحو متواصل أبدي[1].

إن حاجة الإنسان العتيقة لموجود جبار فوقي إنما تتجلى في محاضرة الفيلسوف الأسكتلندي "توماس كالاريل Carlyle" الموسومة بـ"البطل نبيًا: محمد، الإسلام" (١٨٤٠)، حيث يتأمل كيف تطورت الرمزية الإلهية من خلاء صحارى الشرق الأوسط القديم، ملاحظًا: " أنهم عبدوا النجوم.. وعبدوا الكثير من الأجسام الطبيعية،- فعدوها رموزًا وتجليات مباشرة لخالق الطبيعة. لقد كانت هذه الحال خطأً، ومع هذا لم تكن خطأً مطلقًا، ذلك أن جميع مخلوقات الله إنما هي رموزٌ له". (٢)

بهذه الطريقة، كما يرى كارلايل، تمكَّن الإنسان القديم أن يلبِّي ميله الطبيعي للعبادة وللتدين، لذا فإنه من الضروري لقارئ "المغمور من الأديان الأخرى" في الشرق الأوسط أن يخلص إلى وجود عناصر وأنماط تكرار من ذلك البحث الإنساني المضني والقديم عن التيقن الروحي في التقاليد الدينية الثلاثة التي رصدناها بشيءٍ من الاختصار في فصول هذا البحث، أي أديان: أهل الحق والمندائية واليزيدية، فهي تقاليد روحية تقود المرء إلى تأمل الوجود الذي أضنى الإنسان منذ أقدم العصور؛ ولم يزل اليوم. من هذا التأمل الوجودي نبع الانطباع الذي يفيد بأن التقاليد الروحية الثلاثة أعلاه إنما هي جوهريًا من أصداء تلك الأسئلة العتيقة التي أعيت الإنسان وبقيت تؤرِّقه بشكل متواصل، ثابتة في قعر عقله، متجسدة أنماطًا أسطورية نفسية جمعية، إذا ما استعرنا اصطلاح "مود بودكن" Bodkin(٣). حين يتعمق المرء في هذه التقاليد الدينية

القديمة فإنه يجد نفسه أمام رؤى وتواريخ أقوام كانت قد مرَّتْ من هنا أو ذابت، وأخرى كانت قد تلاشت. يعاين القارئ من خلال هذه الأديان التركيبية والتوفيقية سلالات منقرضة لممالك وحواضر عظيمة ولهياكل ومعابد وأرباب وأنصاف أرباب كان يعبدها رجالٌ ونساءٌ مثلنا، من مختلف الأجناس وألوان البشرة والخلفيات الثقافية.

واحدٌ من أهم الاستفهامات يفرض نفسه على ذهن المرء، عبر غياهب مثل هذه المادة الفكرية المهمة، إنما تصعب الإجابة عليه، خاصة وأنه يدور حول المفاهيم والمنظورات المتنوعة لمبادئ التوحيد والشرك والإلحاد ليجد الباحث نفسه، في نهاية المطاف، مضطرًا لأن يخلص إلى أن التقاليد الدينية التي درسناها عبر الصفحات السابقة تجسِّد أمامنا الحدود السائلة والمتداخلة التي تفصل الديانات والعبادات المتنوعة، خاصة وإن " الله لايمكن أن يُعرّف أو يحتوى في أي من التصنيفات التي يضعها الإنسان "[٤]، ناهيك عن شائكية الأفكار المتداخلة التي تبدو وكأنها تستجيب لقوانين تطور ونمو شبيهة بقوانين علم الحياة، كقانون "البقاء للأصلح" وقانون "الانتخاب الطبيعي". لذا ينبغي للمرء أن يتوخى الحذر في بحث قضايا الأصول والجذور الخاصة بهذه الأديان لأنها بدرجة من التشابك والاختلاط أنها تتحدى طرائق البحث وأدوات الاستقصاء العلمي على سبيل تحقيق التيقن والعقلنة. وليس بأقل أهمية مما سبق ذكره، تأتي الخشية من إثارة حفيظة أو انزعاج الأقليات الدينية موضوع البحث نظرًا لوجودها في فضاء اجتماعي

أوسع تسوده أديان الإسلام والمسيحية، واليهودية أحيانًا؛ فهو فضاء مشحون بالتحامل والعواطف الطائفية المبطونة والمضادة للغير، تلك العواطف التي تحث على الاحتفاظ بنظرات دونية نحو هذه التقاليد الدينية للأقليات الصغيرة العدد، خاصة عندما يستذكر المرء ضعف هذه الأقليات مقارنة بالأكثريات، حيث تباشر الأخيرة الأقليات الدينية بوصفها تؤمن بتقاليد روحية غير توحيدية أو غير ملتزمة بالمألوف من العقائد، أو باعتبارها تقاليدَ دينية مشوبة غير نقية الأصول والعقائد. إن إقليمًا تركبه العصبيات الدينية والطائفية مثل إقليم الشرق الأوسط تزيد طبيعة شعوبه من تعقيد حل معضلة بحث الأصول والمنابع الخاصة بهذه الأقليات الدينية؛ لذا يغدو البحث فيها بمثابة السير في حقل ألغام بالنسبة للباحث، أي أنه يمكن أن يواجه انفعالات وضغائن وشحنات عاطفية قد لا تكون قد خطرت على باله قبل مباشرة البحث.

ومع ما سبق ذكره من اعتبارات وعصبيات، يمكن للمرء الخروج بعدد من الخلاصات التي تستحق الملاحظة بقدر تعلق الأمر بأديان الأقليات التي تمَّ رصدها فيما سبق من فصول. والحق، فإن أهم هذه الخلاصات تتبلور في أن هذه الأديان الثلاثة تشترك في كونها أديان تركيبية توفيقية Syncretistic Religions ، الأمر الذي يجعلها أكثر صعوبة للبحث وللتصنيف العلمي لأنها أديان لا تستجيب لأصناف التقاليد الروحية الشائعة بين دارسي الأديان، كصنف الأديان التوحيدية المعروفة: الإسلام والمسيحية واليهودية.

لذا لا يمكن وضع هذه التقاليد الدينية في أية سلة من سِلال التصنيف الديني بالمعنى الذي عرفناه للدين منذ نعومة أظفارنا.

إذًا، فهذه مناسبة موائمة لمساءلة التصنيفات التي تعتمدها دراسات الأديان من خلال مراجعة الكامن من أفكارنا عن الدين، تلك الأفكار التي تمَّ غرسها في دواخلنا فيما سبق من سنين. إن المعتقدات الدينية لأهل الحق والمندائيين واليزيديين تقدِّم لنا مثل هذه المناسبة لمراجعة أفكارنا وقناعاتنا السابقة، فتدفع بنا عبر اللاوعي إلى مدارات بعيدة كانت ممنوعة على المتأمل أو الباحث بسبب الأفكار المسبقة والمفاهيم الخاطئة التي غُرِست في دواخلنا، زد على ذلك عقبات سياسات حكومات دول الإقليم المعنية. لذا، فهي تقدِّم للمرء "صدمة وعي"، هي بدرجة من القوة أنها تفرض عليه مساءلة الملقَن والمتوارث من قناعات وأفكار، ليس بهدف التشكيك بهما، وإنما بهدف توسيع المدارك، دافعة بالوعي إلى فضاءات واسعة تجعله يتفحص هذه الأديان بتجرد البحث العلمي، كما يعاين الطبيب مريضه، بلا عواطف فردية.

وللمرء أن يلاحظ كذلك ثمة مزيج من عناصر روحية تعود أصلاً لديانات قديمة كاليازدانية والزرادشتية والثيدية والهندوسية والمجوسية والكلدانية القديمة، من بين سواها من العناصر المؤتلفة في هذه الأديان، الأمر الذي يزيد من تعقيد مهمة العقل البشري لضم هذه العناصر المختلفة والمتصارعة في منظومة منطقية قابلة للإدراك أو للعقلنة.

من هنا نخلص إلى أن مهمة التصنيف التقليدي غير واردة بقدر تعلق الأمر بهذه الأديان التي يُلام تعقيدها على تنوع أصولها، باستثناء الاكتفاء بعدها من الأديان التركيبية/التوفيقية.

وللمرء أن يلاحظ في هذا السياق كذلك أنه من فضائل دراسة هذه الأديان العصية على ما خبرناه من تصنيفات وقناعات دينية هي إتاحة الفرصة للإنسان لمراجعة "الذات"، خارج الأُطر التقليدية السابقة التي تمَّتْ عملية غرسها في دواخل المرء منذ القِدم وعلى نحو أنماط وأفكار مسبقة من النوع الذي يسري في دواخلنا مع دمائنا في دورات متواصلة.

وثمة ملاحظة أخرى تشترك فيها هذه التقاليد الدينية تتجسد في غياب الكتاب المقدس الواحد، أي الكتاب التقليدي المكتوب الذي يمكن أن يكون مرجعًا كاملاً بالنسبة للمؤمنين وبالنسبة للباحثين على حد سواء، أي أنها أديان لا توفر كتابًا مقدسًا واحدًا يلم بكامل الدين، كما هي عليه حال القرآن الكريم بالنسبة للمسلمين أو الكتاب المقدس بالنسبة لليهود والمسيحيين. لذا يعول أهل الحق والمندائيون واليزيديون كثيرًا على التقاليد الشفاهية المتوارثة والمختزنة في ذاكرة سدنة هذه الأديان من رجال دين وكهنة ومشايخ. صحيح أن كل واحد من هذه التقاليد الدينية يمتلك نصًّا (أو نصوصًا مقدسة) يعتز به أو بها جميع المؤمنين، نصًّا من نوع كتاب الـ(كنزا ربّا) عند المندائيين وكتاب (كلامي سارانجام) لدى أهل الحق، بيد أنهما لايمكن أن يُقارنا بالقرآن الكريم بالنسبة للمسلمين أو بالإنجيل بالنسبة للمسيحيين والتوراة أو العهد القديم بالنسبة لليهود.

تجهزنا هذه الحال بفرصة لمساءلة واحد آخر من المفاهيم التي سبق تأطيرنا بدواخلها فالتزمنا بها على نحوٍ متعامٍ بوصفها الثابت أو المألوف الذي لا يمكن الخروج عنه: تقدم مثل هذه الدراسات في أديان الأقليات فُرص تجهيز المرء بمنظور "مقلوب"، بمعنى مختلف الزاوية، لمراجعة التيقنات والمفاهيم المسبقة. تتميز هذه الأديان بأنها مفتوحة للعقلنة وللاجتهاد العقلي بالنسبة للباحث الخارجي، لأن مبادئها وتيقانتها غير مطلقة، بمعنى أنها غير مضمومة في نصٍّ مقدسٍ واحدٍ لا يمكن المساس به، فهي مجاميع من العقائد والطقوس والأفكار موزعة بين المكتوب والمتناقل شفويًا والمحفوظ في الذاكرة. يشجع هذا التشتت اللاتقليدي الاجتهاد والتفكير الحُرّ غير الملتزم بخطٍ واحدٍ، خاصة عندما يتعامل المرء مع أفكار لا تتناغم مع السابق مما تلقنه. إنه لمن نافلة القول أن بعضنا يميل لأن يطلق تقييمات معيارية على أديان أهل الحق والمندائيين واليزيديين، بوصفها أديانًا غير ثابتة ولا مثبتة ولا تقليدية. يكمن غياب الكتاب المقدس، كما خبرناه في أديانا المنزلة، إضافة على اعتماد الذاكرة والتناقل الشفاهي للتقليد الروحي المعني بواسطة أعداد صغيرة من رجال الدين والشيوخ وراء المفهوم الخاطئ الذي يعد هذه الأديان أديانًا أو عبادات "سرية"، وهو مفهوم تشويهي غير دقيق يمكن أن يتسبب بما لانهاية له من سوء الفهم والتنافر، وأحيانًا، بالبغضاء والضغائن. إن أتباع هذه الأديان الثلاثة ليس لديهم ما يخفونه من الشرور أو ألأنانية أو السرِّية كما

يظن غير العارفين، لأنهم يعون بدقة وضعهم الاجتماعي كأقلية صغيرة قد تكون مستضعفة، لذا فانهم لا يطمحون لتجاوز حدود هذا الوضع الذي تراقبه الأغلبيات السكانية كذلك على نحو متواصل، إذ أن الأغلبيات دائمًا ما ترصد تبعية المرء الدينية في إقليم ملتهب كإقليم الشرق الأوسط. لذا يجد المرء أتباع هذه الأديان عامة يمتازون بالمسالمة والتعاون وبعدم التسييس، بمعنى تجنب التورط في العمل السياسي، على سبيل المثال. تنبع مواقفهم المتحفظة عامة من حرصهم على "الخصوصية" وعلى تجنب التصادم مع أتباع أديان الأغلبية. هم لايطلبون الكثير، فيكتفون بطلب احترام الآخرين لتقاليدهم الروحية وحرية ممارسة طقوسهم بلا إزعاج أو تدخل.

ولا تقل أهمية عما سبق ذكره من ملاحظات، هي الطبيعية الباطنية لهذه الأديان الثلاثة، وهي طبيعة تنطوي، من بين ما تنطوي عليه من أبعاد أخرى، على حضور وقوة العنصر الثنوي في عقائدها وفي مستويات الوعي المزدوجة لرؤاها، خاصة في تمييزها بين الظاهر والباطن. ولأن الثنوية أو الإزدواجية، من وجهة نظر تقليدية، مربكة للناظر الذي يميل إلى رؤية جانب واحد من الظاهرة، يغدو من العصي على هذا الناظر فهم وتمييز الدلالات السطحية والدلالات الباطنية للظواهر. من هنا ينبع التمايز بين البنى السطحية والبنى العميقة، إذا ما استعرنا مصطلح الفيلسوف الأميركي "نعوم تشومسكي" Chomsky في تحليلاته اللغوية. ومرة ثانية، تكمن هذه الصفة الباطنية وراء أسباب سوء

الفهم الذي يتناهى إلى أنها أديان أو عبادات مغلفة بالغوامض التي ينبغي أن تقشع من أجل إتاحة منظور واقعي مباشر لجوهرها. وهكذا يقود عدم الإدراك إلى سوء الفهم، بينما يقود سوء الفهم إلى استفزاز العصبيات ثم إلى التدخل أو العبث، وإلى حدوث ما لا تُحمد عقباه من الإحتكاكات. إنها لمن الاختلالات الخطيرة لدى البعض هو ذلك الاكتفاء بالمستوى السطحي من الرؤية، أي الاقتناع المتوافق مع تجنب جهد رؤية ما هو أعمق أو ما هو مختلف. السطحية والإبتسار هما المسؤولان عن تعقيد مباشرة هذه الأديان على نحو علمي وحيادي. لذا تقود السطحية، تلقائيًا، إلى اختلال الرؤية وإلى سوء الفهم، ثم إلى إخفاق التواصل.

يكهرب سوء الفهم العلاقات بين المسلمين والمسيحيين واليهود، من ناحية، وبين أتباع أديان الأقليات، الأمر الذي يجعل الأخيرين ينكمشون لائذين بقوقعتهم خوفًا من الاعتداء ومن محاولات إذابتهم أو ضمهم لأحد الأديان الرئيسة التي تحتضنها الأغلبية في مهادٍ ثقافي شمولي يميل إلى تجاوز الروافد الاجتماعية الثانوية.

لقد صار من الشائع أن ينحى بلائمة غياب قنوات الاتصال والتواصل على أتباع هذا النوع من الأديان الثانوية، على الرغم من أن الخلل ينبغي أن يُحال إلى الأغلبيات بسبب إصرارها على تطبيق قناعاتها الدينية، معاييرَ، من موقع علوي على تقاليد أقليات روحية مختلفة، تقاليد يعتدُّ معتنقوها بفلسفاتها وبنظرتها للحياة والوجود. يكمن كل دين، كما هي عليه حال اللغات، بغض النظر

عن أعداد معتنقيه، على نظام روحي داخلي خاص به، قوامه المعتقدات التي قد لا تتناغم مع ما يُعدُّ عامًا أو شائعًا ومقبولاً بالنسبة للغالبية التي تميل دومًا إلى فرض رؤاها على الأقلية.

إن "النحو الديني" لأديان أهل الحق والمندائيين واليزيديين إنما هو نحو يختلف تمامًا عن النحو الديني للإسلام والمسيحية واليهودية. لذا فإنه من الخطأ بمكان أن نعتمد نحوًا موحدًا، نعده نحوًا كونيًا، على سبيل تطبيقه على جميع الأديان، معتقدين بأنه قادر على احتوائها جميعًا بضمن بنية نحوية كونية. بالضبط كما أخطأ النحويون التقليديون في أوربا عندما اعتقدوا بامكانية تطبيق قواعد اللغة اللاتينية على جميع اللغات الأوربية باعتبار أن قواعد اللاتينية هي قواعد لغوية كونية. وقد دلَّتْ التجربة العلمية أن قواعد اللغة اللاتينية لا يمكن أن تُطبَّق على اللغة العربية أو الإنكليزية أو الفارسية أو الصينية في آنٍ واحد، لأنها لغات مختلفة عصية على قواعد اللغة اللاتينية بسبب احتفاظها بقواعد خاصة بها.

هنا تتجسد أمامنا ضرورات معالجة إخفاق التواصل على نحو لا يقبل الشك، تأسيسًا على التمييز بين مستويين مختلفين تمامًا من الوعي المرتكن إلى القناعات الدينية والأفكار الروحية النابعة من منظورات فلسفية متعاكسة وذهنيات متناقضة وأنماط تربوية متباعدة.

يؤول غياب التواصل إلى ما يتبعه من بناء الجدران بين الجماعات الاجتماعية المتنوعة، وبالتالي إلى تطوير نوع من

النزعة الانعزالية التي يعمد إليها أفراد الأقليات الدينية، إجراءً وقائيًا، وهي حال تقودهم إلى التمسك بالاعتقاد بأن الآصرة الدينية إنما هي آصرة غير قابلة للتذويب وللتفكك، آصرة تجعل أتباع الدين الواحد، بغض النظر عن أعدادهم، يؤمنون أنهم أمة مستقلة، خاصة عندما تتشبث الأقلية الدينية بتقليد الزواج المغلق الذي لا يسمح لأفرادها الاقتران بأتباع الأديان الأخرى كما يفعل أتباع الأقليات المدروسة في هذا البحث. بل إن هذه الحال الانفصالية تزداد عمقًا وبناءً للجدران الفاصلة عندما يكون دين الأقلية دينًا مغلقًا من ناحية كونه دينًا لا يقبل احتضانه من قِبل الآخرين، أي عندما لا يكون من الأديان التبشيرية. تنطبق ظاهرة الاعتزال هذه على المندائيين الذين يتعزز وعيهم بذاتهم كـ"أُمة" أو كـ"نوع" مختلف، نظرًا لإيمانهم بأنهم إنما ينحدرون من شجرة أسلاف تختلف عن شجرة أسلاف سواهم من البشر، بمعنى أنهم يؤمنون بانتسابهم إلى آدم آخر، سوى آدم، أبو النوع البشري. تسود مثل هذه القناعة بين اليزيديين ولكن على درجة أدنى من الالتزام بالنقاء الجيني. وكذا الحال مع أهل الحق الذين تغلب عليهم الصفة الكُردية بالرغم من أن تضامنهم البيني يتعمق، ليس فقط بتقليد التزاوج المغلق، وإنما كذلك بأخويات مؤسسة "الخاندان" الخاضعة لسلطة "البير" أو السيد الأبوية، كما ناقشنا ذلك في الفصل الثاني أعلاه.

يجد الشعور القوي بالانتماء إلى قومية مستقلة لدى هذه الجماعات الدينية والعرقية ما يعزِّزه ويدّعمه، فيما يقطنون فيه من

أقاليم جغرافية منعزلة، تتيح لهم حدود طوبوغرافية طبيعية تساعد على الحفاظ على أسلوب حياة خاص بهم وعلى ممارسة عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم بعيدًا عن سواهم. هذه الخصوصية تخدم كمسافة اجتماعية ونفسية فاصلة تمتد بينهم وبين "الغرباء" فتبعدهم عن محاولات غزوهم أو الوصول إليهم، خاصة عندما يشك بعدائية الغرباء أو عصبيتهم الدينية.

لذا فإنه من نافلة القول أن ينمو الشعور الهاجسي بالاختلاف لدى أبناء هذه الأقليات الدينية، وهي حال غالبًا ما تولِّد خوفًا وسواسيًا وشعورًا ثقيلاً بالظلم أو بالتمييز أو بسوء الفهم الذي يفضي إلى سوء المعاملة. سرعان ما يغمر هذا الخوف مثل هذه الأقليات الدينية على نحو تلقائي درجة لوذهم بأنماط سلوك أتباع ما يسمى بـ"أديان المضطهدين" التي تمَّتْ الإشارة إليها أعلاه. إنها سلة الأقليات التي تبقى تناضل من أجل أن تنال الاعتراف الرسمي والحرية والشعور بقيمتها الاجتماعية حتى يستحيل هذا النضال نمطًا مضمونًا إلى حياتهم وسلوكهم. إن هذا الشعور الوسواسي بأنهم يعامَلون على نحو مشحون بالتمييز وباللاعدالة، خاصة في دول الشرق الأوسط، إنما يتخلل نفوسهم على نحو تتابعي جيلاً بعد جيل. إنه الشعور الذي يكمن وراء تمكن أبناء هذه الأقليات من إجادة بلاغيات الشكوى والتعبير عن الظلم، فيؤهلهم الشعور بالظلم لأن يكونوا دائمًا مقاتلين أشداء، على الرغم من أنهم قد يطلبون النجدة أحيانًا من الأمم الأجنبية والدول المجاورة، خاصة من الدول

الديمقراطية الغربية حيث تسود قيم العلمانية، فتمنحهم ما يلبي مطامحهم وحرياتهم الدينية. لقد كمن هذا النوع من المشاعر الاحتجاجية وراء النزوح المندائي الجماعي المتواصل من أوطانهم في العراق وإيران، زد على ذلك النزوح الأدنى كثافة لليزيديين ولأهل الحق نحو دول العالم الغربي. وقد لاحظ أحد المرتحلين الأوربيين الذين زاروا العراق قبل قرون الميل المندائي لتعريف الغرباء بدينهم وأحوالهم سنة ١٢٩٠، إذ يسجل "ريكولدو دا مونتيكروس" Montecroce استذكاره لجماعة متفردة بسبب طقوسها، تستقر في البرية بالقرب من بغداد: يُطلق عليهم اسم "الصابئة"، بالقول:

بادرني العديد منهم راجين بإلحاح أن أذهب لزيارتهم. هم قوم بسطاء للغاية ويدَّعون أنهم يمتلكون شريعة إلهية سرِّية، فيحتفظون بها في كُتب جميلة. كتاباتهم هي خط وسطي يتراوح بين السريانية والعربية. إنهم يبغضون "إبراهيم" بسبب تقليد الختان، ويقدِّسون "يوحنا المعمدان". هم يتركزون بالقرب من عدد من الأنهار التي تتخلل تلك البرية. إنهم يغتسلون ليلاً ونهارًا لتجنب غضب الله.[٥]

يمكن للشعور بالانتماء إلى أقليات دينية مضطهدة أن يلقي الضوء على ميل أبناء هذه الأقليات لتأييد الحركات والأحزاب السياسية المعارضة، خاصة تلك التي تعبِّر عن تعاطفها مع المضطهدين ومع الفقراء في المجتمع، وهي حال قد تساعدنا على فهم ميل شبيبتهم إلى الحركات اليسارية، مع إشارة خاصة لظاهرة

تأييدهم للأحزاب الشيوعية بسبب تجاوزها الهويات الدينية والإثنية الثانوية لصالح الهوية الأممية الأوسع، بغض النظر عن الثروة ولون البشرة أو الانتماء القبلي أو المعتقد الديني. هذه الظاهرة لا تنطبق بدقة على المتدينين المحافظين من علية القوم، بينما هي تنطبق بشكل ملحوظ على الفئات العمرية الأصغر التي تلجأ إلى الأفكار الشيوعية أداة للارتقاء؛ بالذات فوق حدود الولاءات الصغيرة الأدنى. لذا شاعت الأفكار الماركسية والاشتراكية بين صفوف الأكراد الذين يعتنقون دين أهل الحق، ومن بينهم، كما يبدو، عدد لا بأس به من قادة حزب العمال (PKK) في تركيا.

وبقدر تعلق الأمر بالجدل الدائر حول تباين الأغلبية مقارنة بالأقلية، ذلك الجدل الذي غالبًا ما يقود إلى السؤال: أي منهما أكثر حكمة من الأخرى؟، زيادة على السؤال حول التوفيق بينهما وحول كيفية انتهاء الأمر بالأقلية إلى الحصول على امتيازات أكبر وأكثر من الأغلبية. يغدو من المهم أن نلاحظ الآتي: أنه ليس من الصحيح دائمًا أن تستثمر الأقليات حالها كأقليات على نحو مجحف، خاصة تلك الأقليات الدينية التي تخصها الأغلبية بنظرة دونية، كونها أقلية متطرفة أو باعتبارها أقلية منفلتة أو حتى بوصمها "أقلية ملحدة"، تعسفًا. وبغض النظر عن الجهود المخلصة أو غير المخلصة، لتحقيق العدالة وتوفيرها للأقليات، يبقى الشعور الهاجسي بأنها جماعات استثنائية تنتمي إلى مدار مختلف خاص بها، مع إشارة خاصة لمعاناتها الاضطهاد والكبح اللذين يقودان إلى واحدة أخرى

من الصفات المميزة للأقليات الدينية، وهي من الصفات الملازمة لها، وأعني بها لوذها بالعقائد المهدوية. لذا يضمُّ تأمل ظهور مخلّص منتظر نوعًا من العواطف الثأرية والانتقامية ترنو إلى ردِّ الأقلية على مضطهديها، فيما لو كان هؤلاء المضطهدون أغلبية أو نظامًا حاكمًا أو جماعة دينية أخرى. لنلاحظ أن كل واحدة من هذه الأقليات الدينية التي درسناها في الفصول السابقة تحتضن إيمانًا مهدويًا من نوعٍ ما، إيمان يرنو إلى ظهور مخلّص موعود من الغيبة في يومٍ ما من أجل تعويض ما خسرته وقاسته الأقلية المعنية عبر الأزمان.

إنها "سايكولوجية الأقليات" هي التي يهمنا رصدها في إقليم الشرق الأوسط المضطرب. هي سايكولوجية تولد في دواخل النفس منذ طفولة الفرد وسنوات عمره ونضوجه، فيتصاعد ضغطها عليه عبر تتابع سنوات النمو والنضوج والاختلاط مع "الآخر" (من أتباع الأديان الأخرى) كي يطوِّر شعورًا أُحاديًا وقويًا بالهوية، شعور يتغذى على منظور قوامه الاختلاف والاستثناء، فيعتمد هذا الاختلاف وسيلة لتبرير الابتعاد عن نمط الأغلبية السائد.

تبرِّر هذه الصفات كذلك بحث أفراد الأقليات عن التفرد والتفوق عبر تحقيق الإنجازات الاستثنائية في التجارة والتمويل، في العلوم والفنون، وأحيانًا، في الميادين العسكرية كذلك. ثمة رغبة متواصلة الحضور بين أفراد الأقليات، تتجسد في عمل الفرد لأن يكون الورقة الرابحة في كل صنعة أو حرفة، وهذه ليست بمثلبة قط.